المشرق

السنة السبعون

تموز – تشرين الاول ١٩٦٦

المطران الكسندروس اسكندر

اسقف ابرشية اسيوط للاقباط الكاثوليك

(١٨٩٥ – ١٩٦٤)

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

وُلد اسكندر في القاهرة يوم ١٣ آذار ١٨٩٥ . ابوه حبيب اسكندر كان من موظفي السكك الحديدية المصرية ، وامه ماريكو رزق‌الله ، وقد رزقهما

الله عدة اولاد : بكرهم لبيب ، ثم رأى نور الدنيا بعده اسكندر وصبحي وباسيلي[1] وسامي .

سنة ١٩٠٥ دخل مدرسة اليسوعيين في القاهرة . بين تلاميذ النصف السابع وظل فيها الى شهر ايار ١٩١٤ . بعد اجازة دراسة صف الخطابة . وقد فاز في العام السابق بشهادة الكفاءة الرسمية المصرية . وهي السابقة للبكالوريا .

في السنة الدراسية التالية كان تلميذ اخوة المدارس المسيحية في مدرسة حي الخرنفش في القاهرة . في امتحان ايلول وتشرين الاول ١٩١٤ كان الاول على ستة تلاميذ ، وكذلك في امتحان تشرين الثاني وكانون الاول .

منذ اعوام دراسته عند اليسوعيين قد امتاز بتفوقه الخارق وغيرته على خلاص النفوس . فتطوع في خدمة « مدارس الاحد » ، التي غايتها القاء التعليم المسيحي على الاولاد ، ولاسيما الفقراء . فلا بدع بكونه قد اصغى ، في شرخ شبابه الى صوت مولاه الداعي اياه الى الكهنوت . ترجّح انه كان شديد الرغبة في الانضواء الى الرهبانية اليسوعية ، بدليل كونه قد هجر وطنه سنة ١٩١٥ ، وهو ابن عشرين عاماً ، وسافر الى بلدة لنسو (Lanzo) في ايطالية ، فدخل هناك مدرسة لليسوعيين ، يكب تلاميذها على دراسة اللاتينية ، ويكمّلون ثقافتهم الثانوية ، استعداداً للكهنوت العالمي او للحياة الرهبانية .

على كل حال لم يلبّ دعوة الله تعالى الا بعد ان جاهد مدة طويلة جهاد الابطال ، للانتصار على مقاومة والديه الشديدة . كان تعلقهما به بالغاً حد الافراط ، لما ازدان به من المزايا النادرة ، فايقنا انه ، اذا عاش في العالم ، يرفع مقامهما الى ذروة السناء ، ويشاطرهما العناية بتثقيف اخوته الصغار .

مع انه قد كتب لهما من لنسو عدة رسائل برهن فيها على حقيقة دعوة الله اياه الى الكهنوت وسمو تلك النعمة الممتازة ، قد ظل أبوه حانقاً عليه مدة عامين ، بل كتب له رسالة ينهاه فيها عن مراسلته ، اذ قد انكره ، ويهدده ،

---

١) باسيلي قد اشتهر ، مثل اخيه اسكندر ، بقداسة حياته الكهنوتية ، وعمل الاخير بالتفتش والاحسان الى الفقراء والثيرة العجيبة في خدمة النفوس . بتلك المناقب الممتازة قد زاد عدد الاقباط الكاثوليك زيادة كبيرة في مدينة المنصورة ، وبنى لهم كنيسة من اجمل كنائس مصر ، فنال لقب قمص . وقد انتقل الى جوار مولاه في شباط من سنة ١٩٥٤ .

اذا تجاسر وكتب له ؛ برفع دعوى عليه في المحاكم . ثم ألان الرب التقدير فزاده الابوي ؛ فكتب رسالة لطيفة لابنه في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٦ .

مع كثرة الدروس في معهد لنسو ؛ عُين ممرضاً لرفقائه ؛ فكان عليه ان يحضّر طعام المرضى ؛ وقد تحتم عليه احياناً ان يقوم من فراشه في الليل لخدمتهم .

في الجولات الشهرية مع التلاميذ . كان يقطع معهم في يوم واحد مسافة نحو ثلاثين كيلومترًا على رجليه . من جهة اخرى كان البرد قارساً طول الشتاء ؛ والثلج يغطي الارض احياناً مدة خمسة عشر يوماً متوالية . مع ذلك قد تمتع بصحة حسنة ؛ بل سمن .

من أثقل صلبانه في سني دراسته هناك . فقره المدقع الناتج عن رفض والده ادنى مساعدة مالية . فاضطُر مرارًا الى اقتراض دراهم من رفقائه لشراء ثياب وكتب . في ١٧ ايلول ١٩١٧ كتب لأبيه : « كثيرًا ما حدث لي ان اقطع ماشياً ؛ في نهار واحد ؛ ما بين اربعة وعشرين وثلاثين كيلومترًا ؛ بدلاً من ركوب ترامواي ودفع خمسة عشر سنتيماً . اقضي العيد بقميص على جلدي ؛ بدون « فانلة » ولا « كلسون » ؛ مكتفياً بسروال (culotte) بالي . لماذا ذلك ؟ لاجل الله ودعوتي . هي التي جشمتني كل ذلك ؛ وانا اقبله وافتخر به . »

قد انتظر بقلق شديد ، دام ستة اشهر ، ان ينيله ابوه جواز سفر يمكّنه من السفر من ايطالية الى فرنسة ؛ بعدما عزم على الانضواء الى جمعية ليون (Lyon) لكهنة الرسالات الافريقية ، وهو آمل ان يبعثه رئيسها العام الى قبائل وثنية متوحشة ، ليبشرها بالانجيل المقدس . في الواقع لم يحصل على جواز السفر الا في اواسط سنة ١٩١٧ ؛ بضعة اشهر قبل شروعه في درس الفلسفة في دير الجمعية المذكورة في ليون .

آباء الرسالات الافريقية اولئك يحفظ كل منهم ماله الخاص ؛ ويجب عليه ان ينفق من دراهمه لشراء كتبه وما اشبه ذلك . يتضح اذًا ان اسكندر ظل يقاسي احوال الفقر نحو ثلاثة اعوام في ليون ، كما قاساها في لنسو .

في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩ كتب لاخيه صبحي انه لم يبق عنده سوى ثلاثة طوابع بريدية ، كل واحد بخمسة عشر سنتيماً ، ولا دراهم له حتى

يشتري غيره . في نوفمبر ذلك الشهر قال له انه يستعير ثياباً منذئذ عند اشتداد البرد . في ١٥ كانون الاول ١٩١٩ شكر صبحي لكونه قد خلصه من ضيق طويل خانق .

قد تتطلب عينه رئيسه وبعض كتبة جمعيته . فوجدوا له من يجود عينه ، بين حين وآخر ، بمبلغ من المال . بتلك الواسطة استطاع مراراً ان يقضي نحو اسبوعين من عطلة الصيف بعيداً عن ليون . في اماكن مرتفعة : جبلة نقاوة . تحدد قواه الخائرة من فرط اكبابه على الدرس .

تأكدت لرئيسه ، بعد الاختبار ، مهارة اسكندر في الاشغال اليدوية . واستعداده الدائم لبذل ذاته في خدمة جمعيته . فوكل اليه العناية بحديقة الدير ، وصار مرؤوسه بستانياً حاذقاً . يعرف انواعاً عديدة من الاشجار والزهور ؛ مع كيفية زرعها وانمائها . في بعض الاعوام الخمسة التي قضاها في ليون كانت له حصة غير يسيرة من اشغال المطبخ . فضلاً عن هاتين الوظيفتين المجهدتين . قد كلف خدمة المرضى ومعالجتهم وفقاً لتعليمات الطبيب . كتب في ٨ ايلول ١٩١٩ انه قضى احدى وعشرين ليلة متتابعة في السهر على الاسقف دورد (Duret) . المصاب بمرض شديد الخطر ؛ فلم يخلع ثيابه طول تلك المدة .

لا بدع : بعد مقاساته فرط عناء الدراسة المثقّلة بعدة اشغال اضافية ؛ بكونه قد اصيب مدة شهر بمرض عضال ؛ وقف عليه والده برسالة من الرئيس ؛ فثارت في قلبه العاطفة الابوية المخضة ؛ وجاد على ابنه العزيز بالمساعدة المالية ؛ انى ان حظي بالشفاء . ثم ظل مدة نحو سنتين يبعث اليه كل شهر باربع ليرات مصرية .

مع ذلك قد تجدد خور قواه ؛ فذكره في رسالته المؤرخة في ٣ تشرين الاول ١٩٢٠ ؛ وقال انه يقضي نصف وقته منطرحاً على فراشه . هكذا اراد المولى الحنّان ان يعوّده ؛ منذ شرخ شبابه ، احتمال ايجاع الامراض التي كان مزمعاً ان يجربه بها في شيخوخته ؛ ولا سيما نوبات مرض القلب الشديدة المتواترة .

نرجح ان اثقل صليب حمله في سبعة الاعوام التي قضاها في لنسو وليون ؛ كان ثبات والده على مقاومة دعوته الكهنوتية . لقد دافع عنها التي الامثل

مرارًا عديدة ؛ في رسائل طويلة ؛ ومن جملتها اول رسالة بعث بها من ليون. مثبتاً باوضح البراهين انه بريء من قساوة القلب وانكار حقوق والديه ؛ اللذين كان ابوه يسببها اليه . من اجلى الدلائل على حرارة حبه لعائلته . كثرة الرسائل والبطاقات التي كتبها لوالدته ولاخويه صبحي ولبيب . وهي ملأى بعطر التقوى وبأسمى النصائح والارشادات . في ١٨ ايلول ١٩٢١ . كتب لوالديه انه . مع كثرة دروس سنة اللاهوت الاخيرة قبل سيامته الكهنوتية . قد فرض على ذاته ان يبعث اليهما ببطاقة كل اسبوع . قد تشكى مرارًا عديدة من قلة الرسائل الآتية من عائلته . وخصوصاً من ابيه . فلا نستغرب البتة قوله له في ٢٣ كانون الثاني ١٩٢١ . « ان الآلام التي اشعر بها احياناً. فائقة الوصف ! »

ربما كان اسعد ايامه في سنوات منفاه الاليمة . الحادي والثلاثين من تشرين الاول ١٩١٩ ؛ فقد نذر فيه . بعد رياضة عشرة ايام ؛ نذور الفقر والعفة والطاعة في جمعيته المحبوبة .

بعد ختام دراسته الفلسفة واللاهوت ؛ رأى الرئيس العام ان اسكندر يقوم باعظم الخدم الروحية في وطنه ؛ لا بين قبائل متوحشة افريقية ؛ فبعثه الى مصر ؛ حيث سامه كاهناً ؛ في ١١ حزيران ١٩٢٢ . في كاتدرائية القديس مرقس بالقاهرة ؛ المطران يوليوس جيرار (Girard) النائب الرسولي لطائفة اللاتين في الدلتا .

في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٢ عُين راعياً للكاثوليك في الزقازيق ، فاس هناك مدرسة ، كان فيها مديرًا وناظرًا ومعلماً .

تجلت مواهبه الكهنوتية الممتازة ؛ فهيأ له رؤساؤه مجالاً اوسع لغيرته في طنطا ؛ حيث حل في ٢٧ حزيران ١٩٢٤ ؛ ووُكلت اليه خدمة رعية الاقباط الكاثوليك القليلة الاعضاء . فما لبث ان بنى هناك اول كنيسة لها على ارض جاد بها آباء رسالات ليون الافريقية ؛ وقد انفق على تشييدها حصته من ميراث ابيه المتوفى فجأةً في ٢٧ تشرين الاول ١٩٢٤ ؛ وما تبرع به ابناء رعيته . بجانب الكنيسة بنى بيتاً للكاهن خادم الرعية ، وديراً مسرحاً للتمثيليات ؛ فكان يدعو اليها اعيان المدينة ، بعد قيامه بتدريب الممثلين مدة طويلة . وقد حدث مرة ان غاب احدهم يوم التمثيل ، فناب منابه . قد الف تمثيلية مار جرجس الشهيد ، فمُثلت على مسرح بلدية طنطا .

زرناه في تلك المدينة بعد عدة اعوام قضاها فيها . فقال لنا انه : طول تلك المدة . لم يخرج مرة واحدة من داره لتنزه : لان كل جولاته موقوفة على خدمة النفوس.

كان ينتقل احياناً كثيرة من مديرية الغربية الى المنوفية . لخدمة عدد اكبر من النفوس . بنى كنيسة ومدرسة في شبين الكوم . في اشمون استأجر بناية حوض الى كنيسة ومدرسة . في سدود اشترى ارضاً ليشيد عليها كنيسة . كان يجول بين صعيدون . طوخ النصارى . منوف وتلا : واعظاً ومرشداً ومرتعاً للاسرار المقدسة . وهو لا يبالي بالاعتراضات والمقاومات . كان يذهب الى تلك البلدات ماشياً او راكباً حماراً . مدة ثلاث او اربع ساعات : وحقيبته على ظهره . ذات يوم جمح حماره . فسقط الكاهن في ترعة ، خرج منها مبلول الثياب : ومع ذلك واصل سيره الى المدينة المقصودة . حيث اشعلوا ناراً لتجفيف ملابسه . في تلك الجولات المتواترة الشاقة ، كثيراً ما قضى الليالي بلا نوم : تحت لسع البراغيث : في غرفة ضيقة قذرة : لا نافذة فيها ولا مصباح النفط القديم .

سنة ١٩٣٣ . بعد نحو تسعة اعوام قضاها في طنطا : ايقن ان الله تعالى يطلب منه وقف كل قواه على خدمة طائفته : فخرج من جمعية آباء رسالات ليون الافريقية : وجعل ذاته تحت تصرف الاسقف مرقس خزام ، رئيس طائفة الاقباط الكاثوليك : فعينه في تشرين الاول ١٩٣٣ راعياً لكنيسة مصر الجديدة : التي لم يتم من بنائها سوى الجدران : ولم يكن في داخلها مذبح ولا مقاعد . فبذل الكاهن الغيور كل جهده لاكمال تشييد الكنيسة ولتزيينها وتجهيزها بكل لوازمها ، فاصبحت من اجمل كنائس القطر المصري.

لم يكن هناك بيت للكاهن ، فتحتم على الاب اسكندر ان يسكن مع امه في منزل مستأجر ، ولم يمض على تعيينه في مصر الجديدة خمسة اشهر حتى شرع في بناء بيت للكاهن .

لترقية مستوى التقوى في رعيته ، انشأ نادي يسوع الملك ، ونشرة «رسالة يسوع الملك» ، خصوصاً للشبان ، وكانت لـه حصة كبيرة في تحرير مقالاتها . اسس ايضاً جمعية للسيدات ، واخرى للشابات ، ومشغلاً تقوم فيه نخبة من السيدات والاوانس بخدمة الكنيسة ومساعدة الفقراء ، وفرع يسوع

الملك التابع لجمعية القديس منصور الخيرية . الشغل المذكور ظل يساعده حتى وفاته ، بعدما سيم اسقفاً لابرشية اسيوط .

لتوثيق عرى الاتحاد بينه وبين رعيته : اصدر بالفرنسية النشرة الشهرية Trait d'union (همزة الوصل) ؛ فكان يحرر هو ذاته اكثر مقالاتها .

سنة ١٩٣٧ فتح لاولاد رعيته مدرسة ابتدائية ؛ وسنة ١٩٤٣ ؛ مع التعويضات الناتجة عن الحرب العالمية الثانية . اشترى ارضاً موازية لجانب الكنيسة . وبنى عليها مدرسة ثانوية . شد هاتين المدرستين بمعاونة المرحوم اخيه المهندس صبحي . وكان فيها مديراً واستاذاً . وهو يقوم بنفقات كل لوازمها ؛ ويدفع مرتبات معلميها ، وقد بلغ عددهم ثمانية وثلاثين .

من شدة غيرته على خلاص النفوس الموكولة اليه ؛ كان يشتغل ليلاً ونهاراً بلا كلل ولا ملل . ذات يوم تشكت له والدته الطاعنة في السن من قلة زياراته لها ، فاجابها : « يا امي العزيزة ، ان وقتي ليس لي ، بل كله لرعيتي . »

تلك المآثر العجيبة في خدمة رعية مصر الجديدة ؛ جعلت الاستف مرقس خزام يرقيه في ١٣ آذار ١٩٤٤ الى مقام الايغومانوسية . وفي شباط ١٩٤٧ منحه البابا بيوس الثاني عشر رتبة الخبرية الشرفية ، بينما كانت رعية الكاهن القديس تستعد للاحتفال بيوبيله الكهنوتي الفضي .

حين شغر كرسي المنيا بوفاة الاسقف جرجس البركة ، عُين الاب اسكندر ، في كانون الثاني ١٩٤٧ ، مديراً رسولياً للابرشية .

في ١٠ آب ١٩٤٧ عين بيوس الثاني عشر الاسقف مرقس خزام بطريركاً للاقباط الكاثوليك ، وانشأ لهم ابرشية رابعة ، باسم ليكوبوليس (اسيوط) ، واقام القمص اسكندر اسقفاً لها ومديراً رسولياً لابرشية طيبة (الأقصر) ، فسيم اسقفاً في كنيسة طائفته بمصر الجديدة ، في ١٤ كانون الاول ١٩٤٧ .

في ٢ تشرين الاول ١٩٤٩ رُسم الخوري اسحاق غطاس اسقفاً لكرسي طيبة ، وفي ١٩ آذار ١٩٥٠ رُسم الخوري بولس نصير اسقفاً للمنيا : فحصر اسقف اسيوط — وقد اتخذ اسم الكسندروس اسكندر — كل جهوده في تحسين الاحوال الروحية والمادية في أبرشيته .

لم يكن له في اسيوط كاتدرائية ولا مطرانية لائقة ؛ فاستأجر بيتاً بسيطاً ، خصص فيه غرفة فسيحة لاقامة القداس . اما الخرائب التي سبقت ان صاحبت بناء الكاتدرائية . فهي من الغرابة بمكان ؛ ولا بد من التقصيل لتسجيل العناية الالهية .

ذات يوم من صيف سنة ١٩٥٠ كان يصلي في كنيسة القديس بطرس في روما . امام صورة العذراء المجيدة . ام المحبة الالهية . متوسلاً اليها ان تساعده على بناء كاتدرائية ومطرانية في اسيوط ، وكان قد حدد رسميا . مع حبه الهندسي صبحي . وليس عنده من المال ما يلزم للنفقات التحضيرية . ثم ذهب الى مدينة تابريز تركيب باخرة تقله الى مصر . وزار هناك كنيسة ام المحبة الالهية . فركع وجدد لعذراء التوسل المشار اليه . ثم وعدها بان يطلق اسمها الجليل على الكاتدرائية ؛ اذا آزرته على شراء الارض اللازمة وحصل على نفقات البناء . وقف كاهن تلك الكنيسة على قصده . فوعده بان يتبرع للكاتدرائية المستقبلة بصورة لام المحبة الالهية . كاملة المشابهة لصورتها في ذلك المزار .

بعدما عاد المطران الى اسيوط . اعطى « المقاول » ؛ اي المشرف على البناء . ثمانين جنيهاً للشروع في حفر الاساس . بعد حين اعطاه اربعة آلاف جنيه ؛ كان قد اقترضها من الكردينال تيسران (Tisserant) ، كاتم اسرار مجمع الكنائس الشرقية حينئذ ؛ ووعده بان يعيدها اليه شيئاً فشيئاً ؛ فدفع القسط الاول من ذلك الدين ؛ ثم ترك الكردينال له الباقي ؛ اذ وقف على قلة ماله . ظل الاسقف يعطي « المقاول » ؛ بين آونة واخرى ؛ اربعة آلاف جنيه ؛ اكثرها من المتبرعين ؛ بحيث تم بناء الكاتدرائية في ثلاثة اعوام ؛ من تشرين الاول ١٩٥٠ الى تشرين الاول ١٩٥٣ ؛ ثم وُضعت صورة ام المحبة الالهية ؛ الآتية من تابريز ، فوق المذبح الكبير ؛ بعدما باركها البابا بيوس الثاني عشر . ومن الجدير بالذكر ان المطران الغيور قد ظل يسهر هو ذاته على اتقان البناء من الابتداء الى النهاية . في ٤ تشرين الثاني ١٩٥٣ كرس الكاتدرائية الكردينال تيسران .

كما كان كاهناً مثالياً طول الخمسة والعشرين عاماً التي انقضت بعد سيامته ؛ هكذا بقي الى موته اسقفاً باذلاً نفسه بلا انقطاع لتقديس رعاياه .

كان عجيب الصبر على انواع الآلام النفسية والجسدية ، مهما ثقلت وطأتها وطالت مدتها .

ظل الى وفاته يقيم القداس الاحتفالي ويعظ فيه كل يوم احد في كاتدرائيته ؛ غير مكترث لما يقاسيه من التعب الشديد ؛ ولا سيما في شيخوخته.

كان يحب كهنته محبة ابوية محضة . فلا يزال مشغولاً بسد كل احتياجاتهم الروحية والجسدية ؛ وبخل المآكل العديدة التي يصطدمون بها ؛ وقد قال قبيل وفاته : « الحمد لله ، قد امّنت معيشة اولادي الكهنة وحسنت قداساتهم . »

قال عنه احد كهنته اشبان : « كنت اسمع انه ضيف في سلوكه وحكامه . في الحقيقة كان هكذا لشدة غيرته . اما في الشؤون التي لا علاقة لها بخلاص النفوس . فكان لطيفاً ؛ بشوشاً ؛ رقيق الفؤاد . يعطف على الصغير اكثر من عطفه على الكبير ؛ يعطي كل ذي حق حقه ؛ ولا يهاب احداً . كان قوياً مزمجراً كالاسد في ما يختص بالواجب ؛ ووديعاً كالحمل في اوقات السرور . »

لم تكن تلك الوداعة طبيعية فيه ؛ بل كان حاد الطبع ؛ سريع الغضب ؛ وقد زادت تلك الحدة بفرط ما قاساه ؛ منذ ريعان شبابه ؛ من كروب الفقر والامراض والاتعاب المضنية والمعاكسات الشديدة . قيل عن القديس فرنسيس السالزي انه قد اكتسب الوداعة الكاملة ؛ بعدما قاوم مزاجه الناري نحو عشرين سنة . اما المطران الكسندروس ؛ فقد ظل يحاربه بشجاعة الى آخر حياته ؛ ومع ذلك قد ثار غضبه مرارًا ثورات فاحشة ؛ حتى في شيخوخته . يتضح من ثم ان انتصاره المعتاد على تلك الشهوة الجامحة كان ثمرة اعوام جهاد وصلوات وتضحيات اليمة .

كان يلذ له ان يستقبل اولاد ابرشيته في بهو المطرانية ؛ فيحادثهم محادثة احن الآباء ، ويشاطرهم الافراح والاتراح ، وينزل عند كل رغباتهم المعقولة ؛ بل كان يزور كل ابناء رعيته في بيوتهم ويهتم بجميع اعضاء عائلاتهم . للقيام بتلك الزيارات العديدة قد تحتم عليه مرارًا لا تُحصى ان ينزل من سيارته ، لفرط ضيق الطُرق ، ويركب حمارًا يوصله الى البيت المقصود ، وكثيرًا ما وقع من تلك المطية لوعورة السُبل .

كانت لقداسته الساطعة جاذبية شديدة لجميع الذين عرفوه وعاشروه ؛ من كاثوليك وغيرهم ، فصار مرشدًا لكثير منهم .

من أعظم مشروعاته الجريئة المبتكرة انه قد بنى في اسيوط مدرسة يكب فيها فريق من الشبان الأتقياء على درس حقائق ديننا المقدس مدة سنة او اكثر ؛ ثم يغادرونه لالقاء التعليم المسيحي ؛ على الاخص في القرى التي لا كاهن لها ، فاصاب ذلك المشروع نجاحاً باهراً .

لقد جدد ابرشية اسيوط بكثرة ما بناه او رممه فيها من الكنائس وبيوت الكهنة والمدارس . وقف على حدوث شقوق واسعة في كنيسة كوم اسفحت حين تشييدها . فكمّل بناءها بكل الاتقان . ثم بنى كنائس في صدفا ؛ الشنابلة . سُوَيط ؛ نجع رُزَيق ؛ تل ولاد سراج ؛ النخيلة . ابو تيج . بني محمديت . المنشاة الكبرى . بيلاو . دير الجنادلة . قد رمم كنائس الغنايم . البياضية ؛ العزايزة . بنى بجانب كل كنيسة بيتاً لكهنها . اجمل تلك البيوت في صدفا ؛ ابو تيج ؛ النخيلة ؛ بويط . ملّوي ؛ العزايزة . قصد قُبيل وفاته ان يبني في البدرمان كنيسة خصص بها اربعة آلاف وخمسمئة جنيه ؛ فحال موته دون انجاز قصده .

قد اسس المدارس في ملّوي ؛ البياضية ؛ القوصية ؛ بني شقير ؛ بني محمديات ؛ الواسطى ؛ ابو تيج ؛ النخيلة ؛ الزرابي ؛ صدفا ؛ كوم اسفحت . دير الجنادلة . كوم ابو حجر ؛ العزايزة ؛ الغنايم .

كانت للفقراء من رعاياه حصة ممتازة من حنوه الابوي ، فلا يزال يحسن اليهم بسخاء القديسين . كان في معهد التعليم المسيحي في اسيوط ؛ تلميذ فقير جداً ؛ لم يكن له من الثياب سوى « جلابية » وقميص ، يغسلها بين حين وآخر في المساء ؛ ليلبسها في الغد . عندما وقف الاسقف على ذلك ؛ احدى له قميصين من قمصانه واعطاه من الدراهم ما يشتري بـه « بدلة » كاملة .

في كل شتاء كان يوزع النقود على المحتاجين من رعاياه في المطرانية وكل الخورنات . ظل يستعطي للفقراء ؛ اما هو فقد عاش فقيراً ومات فقيراً ، وقد قال قُبيل موته : « لا املك شيئاً ؛ كل ما عندي هو ملك المطرانية . اريد ان توضع جثتي بعد وفاتي في نعش حقير . »

الخبرة التي اكتسبها في خدمة المرضى ، طول السبعة الاعوام التي قضاها في لندن وليون ، مكّنته من وصف العلاج الشافي لعدة اشخاص ؛ ومن جملتهم بعض كهنته .

قد سخّر قلمه السيال لتمجيد الله تعالى ولتقديس النفوس . هاكم جدول مؤلفاته ؛ بغض النظر عن كثير من المقالات التي نشرها في مجلات طائفية وغيرها . السنوات المذكورة بين قوسين تدل على تاريخ الطبعات المتوالية .

١ً قداس القديس باسيليوس (سنة ١٩٥٦ ؛ سنة ١٩٦٣) .

٢ً المنارة ؛ وهي حاوية شرح القداس (سنة ١٩٤٩ . سنة ١٩٦٤) .

٣ً كنز المسيحي (سنة ١٩٥٠ ؛ سنة ١٩٥٤ . سنة ١٩٥٨) .

٤ً مرشد الارثذكسي الكاثوليكي (سنة ١٩٣٧ . سنة ١٩٦٠) .

٥ً تاريخ الكنيسة القبطية في جزئين صدرا سنة ١٩٦١ وسنة ١٩٦٢ .

٦ً الانغام الشجية في مدح ام المحبة الالهية (سنة ١٩٦٠) .

٧ً النشرة (Trait d'union) الشهرية ؛ اصدرها من سنة ١٩٣٤ الى ١٩٤٢ .

٨ً مجلة الكاهن الشهرية ؛ نشرها من تشرين الثاني ١٩٤٩ الى آب ١٩٥٣ .

٩ً الحياة الكهنوتية والرسولية ؛ صدر منها عشرون جزءًا ؛ اثنان في كل عام ؛ من سنة ١٩٥٣ الى ١٩٦٣ .

١٠ً الرسالة الراعوية ؛ صدر منها سبعة عشر جزءًا ، في الصوم الاربعيني ، من سنة ١٩٤٩ الى ١٩٦٥ .

فضلاً عن كل ذلك ، قد عرّب سنة ١٩٦٣ حياة القديس بطرس كلافر (Claver) اليسوعي ، وسيرة الام مريم ترازية ليدوخوفسكا ، مؤسسة رهبانية القديس بطرس كلافر ، التي غايتها مساعدة رسالات افريقية.

له ايضاً كتاب على طقوس الكنيسة القبطية ، شرع في طبعه ؛ وقد حال موت المؤلف دون صدوره .

قد ظل في حياته الاسقفية ، كما كان في الكهنوتية ، يتمم كل اعماله وفقاً لنظام دقيق ، لا يحيد عنه الا عند الضرورة . كان ينهض من فراشه في الساعة الرابعة والنصف ، ثم يستحم ويلبس ثيابه وفي الخامسة يصلي ويتأمل في معبده الخاص . في السادسة الا ربعاً يقيم القداس ، وبعد صلاة الشكر الطويلة يتناول الفطور . في السابعة والنصف يذهب الى مكتبه لاستقبال

زواره والقراءة والتأليف . وعلى الأخص للقيام باعمال المطرانية وضبط حساباتها. في الثانية عشرة والنصف يصلي فرض الكهنة ؛ وفي الاولى بعد الظهر يتناول الغداء ؛ ثم يزور القربان المقدس ويستريح قليلاً . في الثالثة يعود الى مكتبه لتكملة ما عمله في الصباح . في السادسة والنصف ينجز صلاة الفرض . ثم يتمتع براحة قصيرة ماشياً في مدخل داره . قبل قضاء ساعة في مكتبه . في الثامنة الا ربعاً يزور القربان المقدس في الكنيسة . وفي الثامنة يتناول العشاء . بعد ذلك كان في الشتاء يذهب الى غرفة النوم ؛ وفي الصيف الشديد الحر يصعد الى السطح للاستراحة في خامرة كبيته .

من اوضح الادلة على وفرة ثمار غيرته الخصوصية ان عدد رعاياه في ابرشية اسيوط كان نحو عشرة آلاف . حين سيم اسقفاً لها سنة ١٩٤٧ ؛ فصار زهاء خمسة وعشرين الفاً حين موته .

ذاع صيت قداسته وعلمه في انحاء مصر ؛ بل انتشر في الفاتيكان ؛ فعينه البابا يوحنا الثالث والعشرون سنة ١٩٦١ ، عضواً في اللجنة التحضيرية للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ؛ ثم رقاه بولس السادس سنة ١٩٦٣ ؛ الى رتبة رئيس اساقفة ؛ واختاره المجمع المقدس للكنائس الشرقية مستشاراً له.

مع كثرة اشغاله القليلة المتواصلة في خدمة نفوس رعاياه . كان الاسقف القديس يبدي ارق العواطف لاولاد المرحوم اخيه المهندس صبحي ، فيجود عليهم بوقته الثمين ؛ وبطيل اجابة رسائلهم ، وهي ملأى بالنصائح والتحريضات السامية . حاكم بعض مقتطفات منها ، عربناها عن الفرنسية .

كتب لبنت اخيه نيتل (Nénelle) في اول تشرين الثاني ١٩٦٢ :

« ينبغي الا تكوني متشائمة ؛ بعكس ذلك مقدرتك مساوية لمقدرة كل الناس ؛ يلزمك مجرد العزم . من جهة اخرى انا عارف ان ما ينقصك ليس الارادة الصالحة . الارادة هي المقدرة ، فسيري الى الامام لتصيري مُشرقة اجتماعية فاضلة وباذلة لذاتها . الشهادة التي سوف تُعطينها ترفع مقامك . لا تخمد همتك اذاً ؛ ابتسمي على الدوام ابتسامك اللطيف ؛ اخضعي لارادة الله التي تبديها لك والدتك ، ولا تخافي شيئاً . من جهة اخرى ، على ذلك المنوال يجتذب الانسان الى ذاته بركة الله المتممة ... يوجد امر يحل جميع المشاكل ، وهو المحبة . سوف تسنح لك فرصة ممارستها بصفة مشرقة اجتماعية ... اباركك واعانتك . »

كتب لبنت اخيه منى ؛ من أسيوط ؛ في ٢٧ ابريل ١٩٦٢ :

« أبدأ بتهنئتك بالنجاح . واوجز ان تكون هذه السنة حسنة من حيث النتيجة والترقي ... كنت اود ان اسرك وعود (الى القاهرة) في ٣٠ تشرين الاول . لكن ذلك لا يمكنني بسبب واجباتي والغياب الطويل في الصيف . لبنت . مع حر الشديد الوطأة . لن اعود الا يوم الاحد ٧ تشرين الاول بعد القداس . اذاً ٢٤ ساعة بالقطيط قبل السفر الى رومة . اؤمل مع ذلك ان احدثكم جميعاً في حسن الحال والفرح . بين ذلك اباركك واعانقك . وافعل مثل ذلك مع امك واخوتك واخواتك . اتركك في قلب يسوع . »

كتب ذا من رومة في ١١ تشرين الثاني ١٩٦٢ :

« ها انت في المدرسة ، ويجب ان تستعدي هذه السنة لنيل شهادة ؛ سيكون الانتظار بها شاقاً . بيد ان الرزانة والشغل المواظب عليه يؤولان الى اصابة الهدف . السنة الماضية رأيت فيك شيئاً من هيجان الاعصاب ناتجاً عن فرط التعب ؛ اما هذه السنة ، فيجب ان تتخلصي فيها من ذلك . تقولين لي انك في هذا العام حاملة حملاً ثقيلاً من الشغل ؛ اني افهم ذلك ؛ ولا بدع به . فعليك ان تتسلحي بالهدوء بمجابهة ذلك بالعزم وبالابتسام على شفتيك . ثم يجب الاتكال على الله الذي يبارك جهودنا ويؤازرنا ؛ يساعدنا بنعمته وانواره . انا عارف انه سيلزمك بذل جهد جاهد ؛ بيد انك ستكونين شجاعة للسير الى الامام ؛ مع كل العقبات . من اراد الغاية اتخذ الوسائط المؤدية اليها ؛ ولا يجني احد ثماراً بدون كد . نعم العمل اذ تعزين امك وتكونين ملاكها بلطفك وبحبك البنوي . ولكن ايقني ان تعزيتها تزيد حين تخففين همومها بسهرك على صحتك التي تهملينها لعدم تناولك الغذاء الكافي ؛ وبالحصول على نتائج حسنة في المدرسة ؛ فلا بد اذاً من الشغل .

نحن هنا مكبون على الشغل ؛ والايام تمضي سريعة في الابحاث والدروس اللاهوتية والتاريخية والفلسفية . السماء منذرة بالمطر ؛ فلا يكاد ينقضي يوم بدون هطل المطر . على كل حال صلي لعملك ؛ فان صحته مختلة في هذه الايام ؛ ولا يكاد يتسع الوقت لمواجهة طبيب ؛ اتكالي على الله . عانقي بالنيابة عني امك واختك واخواتك . اني اصلي لاجلكم جميعاً ؛ امام مذخر عظام القديس بيوس العاشر ؛ اتذكر كل واحد منكم ؛ وكذلك على قبر القديس بطرس . اباركك واعانقك بمحبة شديدة . »

كتب لها من رومة في ٢ كانون الاول ١٩٦٢ :

« ... العربية لغة صعبة . وبرنامجك مهم وطويل . ان اردت النجاح في آخر السنة . فلا مندوحة عن اكبابك على درسه بشجاعة وعزم كامل ... انت عارفة اني اصلي على الدوام لاجلك . اريد ان اراك تقية ؛ لا ذات تقوى معتدة . بل اكثر من ذلك . السيد المسيح يحبك ؛ فيجب ان تحبيه بلطفك . وعلى الأخص بحسن سلوكك ورزانتك . اضيف الى ذلك مادة حقيرة . الطاعة في شأن الطعام . انت ضعيفة الصحة . ويجب عليك الشغل . وهو يستوجب غذاءً كافياً . يحزنني ان تكرري قد ليست قولي . اصلي ان اراك يوم الاثنين . حين وصولي . بصحة حسنة . اصلي لاجلك وباركك.»

كتب لها من اسيوط . في ٢٧ تموز ١٩٦٤ :

« يصعب عليّ ان اصف لك كل الألم الذي شعرت به عند قراءة رسالتك . ما سبب ذلك ان هبوطك اثر فيّ ؛ بل علمي وشعوري يوجعك الروحي البادي في اسطرك . كنت اود ان اكون بجانبك لآخذ رأسك الملتهب والمبلل بالدموع ؛ حتى اضعه على قلبي . لكي اجعله يشعر بانه لم يخسر شيئاً ؛ وانه يجب عليه الابتسام لتلك التجربة الثقيلة التي حدثت باذن العناية الالهية . لا شك في ان النجاح كان يمتعك بلذة شخصية ؛ غير ان واجبنا عدم النظر الى الوقت الحاضر ؛ بل ينبغي ان نهز اوتار جمال ايماننا ونُلقي ذاتنا القاء اشد بين يدي الابوة الالهية . المستقبل ليس لنا ؛ يا بنتي العزيزة ؛ بل لله ؛ ونحن نهيئه بالنداسة ؛ وهي وحدها ذات قيمة في عين مولانا . ما اشد رغبتي في ان اسكّن في قلبك ثورات الغضب على ظلم اصابك ؛ وخصوصاً على فراغ حدث فيه ! يا عزيزتي الصغيرة ؛ اتركي كل شيء بين اليدين الاحبتين ؛ وانقادي لله تعالى ؛ صدقيني ؛ ذلك هو الطريق الامين .

لا تستسلمي للافكار السوداء ، وعلى الاخص لا تطالبي بشيء . ما اقيم له الوزن الاكبر هو ان تحفظي سلامك ؛ لذلك آمرك بالخضوع والصلاة . هذا هو الوقت الممتاز بين سائر الاوقات ، لنُبدي فيهما جمال الصليب وعظمة اسرار ديننا . على كل حال ارجو ان اكون عن قريب في مصر الجديدة ؛ لمساعدتك على افراغ كروب قلبك في قلبي وتجديد سلامك . انوي مغادرة هذه المدينة في الرابع من آب او الخامس منه بصفة الحد الاقصى .

صحتي في تحسن . حين زيارة البطريرك كنت خائر القوى ؛ كان قلبي

قد ارتخى جداً : فلم اتمتع براحة . غير اني منذئذ احسن حالة : بغض النظر عن بضع نوبات زهيدة . لا بأس بذلك : فلا يقلق احد عليّ . اني في حال جيد على الدوام : ابذل وسعي لمقاومة المرض ونكيلا اصبح حملاً ثقيلاً على احد ... »

كتب لها من اسيوط . في ٢٣ ايلول ١٩٦٤ :

« ... قد فحصني الطبيب فحصاً متقناً . اصرح لك بسروره اذ وجد حالتي العامة مرضية ، والادوية التي اتناولها جيدة ... اما الرجل فهي دائمة التورم : وذلك ناتج ، على رأيه : عن تمدد عروق داخلية لا يوجب عليّ فرط القلق . ذلك مزعج في الحقيقة ، فانه يحول دون جولاني في المدينة . بيد ان الوقت لا يتسع لها الآن لكثرة الشغل ... لا تتكدّي ، يا عزيزتي الصغيرة . في اني اصلي كل يوم لاجلكم جميعاً على قبر القديس بطرس وقبور سائر البابوات القديسين التي ازورها ، ثم امام القربان المقدس . اني احمل كل الناس في قلبي ، واطلب من الرب يسوع ، الذي اكل اليه اعز ما عندي ، ان يباركه ويحميه ويحفظه .

الشر محيط بنا ، فنحن عرضة له ومجتذبون اليه ، فنحتاج الى نعمة خاصة للثبات . انك تعزيني ، يا بنتي العزيزة ، بقولك انك تزورين يسوع كل يوم . ايقني انه هو الذي سيعطيك القوة ويصونك ... »

في ١٩ كانون الاول ١٩٦٤ ، كتب من اسيوط الى حبيب ابن اخيه :

« اشكر لك تمنياتك . لن يكاد يمكنني ان اكون بينكم يوم عيد الميلاد . انه في آخر سنة ، ثم تليه ايام جديرة بالذكر : فلا يليق ان اغيب فيها ، فلا تنتظروا سفري قبل ١١ كانون الثاني . على كل حال كونوا موقنين على الدوام اني باق بقلبي معكم ، ولا شك في اني اصلي من اجلكم جميعاً بدون انقطاع ، طالباً من الله تعالى تورده وحمايته ... لا احدثكم عن صحتي : حالتي متحسنة في الغالب ، غير ان ذلك لا يحول دون مقاساتي نوبات غير خفيفة من حين الى آخر . لا بأس بذلك ، ان صحتي لا تحمد . الله ينصرني بقوته : فلا ازال اشتغل . زياراتي للقرى لا تخلو من عواقب سيئة ، لكن الخير الناتج عنها جدير بالعناء . اما انت ، يا ابني العزيز ، فاعتن بذاتك واسهر على صحتك ، فان امامك مرحلة طويلة ، ومن يقصد الذهاب الى مكان بعيد لا يُجهد مطيته . ابارك عليكم والتمس من الله ان يمنحكم جميعاً الفرح والسلام والسعادة . »

في ٢٦ كانون الأول ١٩٦٤ : ثلاثة ايام قبل موته الفجائي : كتب مني بنت اخيه :

« ... ان شاء الله . سأعود من اسيوط (الى القاهرة) في ١١ كانون الثاني بقطار الصباح : المنطلق في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والعشرين . ارجو يرضا ان اجدكم جميعاً بصحة حسنة ... في هذه الايام لا ينقضي شغل : تلك حالتي الدائمة في زمن الاعياد . مع ذلك صحتي قد عراها بعض الاختلال . لا اكترث لذلك وارجو حفظ قواي الى عيد الميلاد . وبعده استريح قليلاً . على كل حال حاول تناول الادوية والاطعمة الموصوفة . بارك عليكم . ايها الاولاد الاعزاء . وابقى متحد القلب بكم . مع وكالتكم الى العذراء مريم . »

بعد اشتراكه الماضي في الدورة الثالثة من المجمع الفاتيكاني الثاني . عاد من رومة الى اسيوط في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٤ . وهو بطيل التفكر في المشروعات الخطيرة التي يقصد انجازها بعد غيابه الطويل : ولم يخطر ببال احد ان موته قريب . قد اعلن لكبته وغيرهم قرب موته بضعة ايام قبل وفاته الفجائية . في ١٤ كانون الاول ١٩٦٤ امتحن فريقاً من كبته الجدد في المزاد اللاهوتية . وبعد الامتحان قال له الاب يوسف الحريني « كل عام وانت بخير » : فاجابه المطران : « لا نخدع نفسنا : هذا آخر عام : رجلنا على باب القبر . »

في ٢٨ كانون الاول تناول العشاء كعادته الساعة الثامنة : وقال للكهنة : « قد افرزت اربعة آلاف وخمسمئة جنيه لبناء كنيسة البدرمان ، وسوف اشيد « طبقة ثالثة في معهد اساتذة التعليم المسيحي . الحمد لله : كل شؤون ابرشيتي « منظمة ، فمن يخلفني على كرسيا يرضى عن ترتيبها . »

في صباح الغد قام من فراشه واغتسل بالماء السخن ، ثم خرج من الحمام ولبس كل ثيابه ، وذهب الى خزانة ليخرج منها حلته السوداء ، فاصابته فجأةً نوبة قتالة ، فسقط على الارض : ثم نهض واتكأ على تلك الخزانة ، واسلم روحه الطاهرة بين يدي مولاه ، في الساعة الخامسة من صباح الثلاثاء ٢٩ كانون الاول .

نشر التلغراف نعيه الفاجع : فذهب فوراً الى اسيوط الكردينال البطريرك اسطفانوس الاول وجميع الاساقفة الاقباط الكاثوليك ، السفير البابوي بريتي

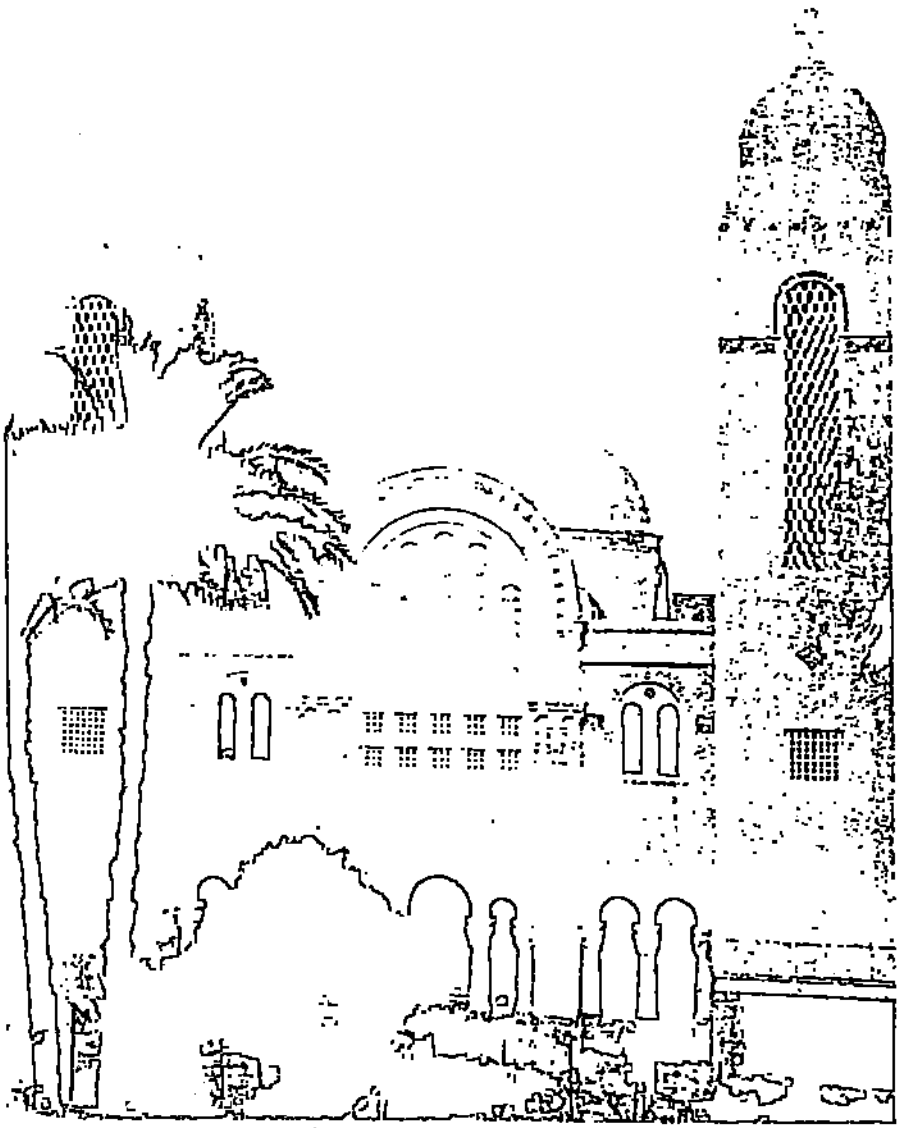

كاتدرائية الاقباط الكاثوليك في اسيوط

(Brini) والاسقف اللاتيني امان اوبار (Amand Hubert) ، وكبنة الابرشية وكثيرون غيرهم . كل اولئك قد شيعوا جنازته . وكان معهم محافظ (حاكم) اسيوط ، مدير جامعتها ، موظفو السلطة التعليمية ، وجم غفير من ارباب السلطة المحلية ومن عامة الشعب . النصارى والمسلمين . مئات منهم . شبان وشيوخ . نساء واطفال . كانوا يذرفون الدموع الحارة على موت من كانوا يعدونه احن اب واوفى صديق خير جميعاً . قد دُفن اخير القديس في كاتدرائيته تحت المذبح الكبير .

في ٨ كانون الثاني ١٩٦٥ اقام القداس لراحة نفس الراحل الجليل ، غبطة الكردينال البطريرك اسطفانوس الاول . في كنيسة مصر الجديدة . الخاصة بالخاضرين . فأبن الاسقف يوحنا كابس المطران الكسندروس تأبيناً بليغاً مؤثراً ، قال فيه عن فقيد طائفته ووطنه ، بل الكنيسة جمعاء : « انه اتم رسالته وقام بها خير قيام . وكأني به يهتف مع بولس الرسول : « قد جاهدت الجهاد الجميل وأتممت شوطي وحفظت الايمان ، وانما يبقى اكليل العدل المحفوظ لي ، الذي يجزيني به في ذلك اليوم الرب الديّان العادل . » لقد قضيت ، يا الله ، ولا رد لقضائك . ولا معترض على أحكامك . فقد اصطفيت خادمك الأمين ، لتشركه في الافراح السماوية جزاء خدماته الجليلة واعماله الصالحة . لقد فقدنا ، ايها الأعزاء ، درة ثمينة وكنزاً لا يعوّض . لقد فقدت الطائفة حبراً غيوراً مشهوراً بتقواه وبعلمه ، وبحبه الحار للنفوس وبنشر ملكوت الله . »

في اليوم الاربعين بعد وفاته ابّنه الاسقف ارمان اوبار ، فاجاد كل الاجادة في وصف مميزات قداسته السامية . قال : « اما انا الذي عرفت المطران الكسندروس اسكندر منذ مدة تناهز نصف قرن ، اولاً وهو طالب اكليريكي ، ثم حين كان خادماً لرعيتي طنطا ومصر الجديدة ، وحفظت صلات عديدة به ، مكثراً واياه تبادل الآراء ابان جلسات المجمع المسكوني الثلاث (الاولى) في روما ، فقد وجدت فيه على الدوام رجاية النظر ذاتها ، الاهتمام بكل كنائس بلاده ، وجهد التسلط على نفسه ليرتقي فوق المشاكل الخاصة ويطلب الخير العام لشعبه ولطائفته باسرها ... تحت ظواهره غير الخالية من بعض الخشونة ، وراء نظره العنيف وقوله الحاسم احياناً كثيرة ، كان المطران اسكندر يخفي قلباً من ذهب ، قلب اب لاولاده . كان شديد المطالبة مع كهنته ، مع رعاياه ، وكذلك مع اقاربه واصدقائه ، بيد انه اشد مطالبةً

من نفسه وجواداً بقدوته الصالحة . اذا استطاع تحرير كتبه الاولى بالجوهر الروحي على الكيفيات لكيفيته : ورسائله الراعوية الصادرة عن الهام عميق من الكتاب المقدس . فسبب ذلك انه كان لا يزال يدرس ويطيل التأمل : مع حنفه : حتى في المرض . المواظبة على ممارساته الروحية . التي كان يجتذب اليها كيفية مطرانيته . ويوصي بها في كل فرصة سانحة . جميع كهنة الرعايا : الذين كان يزورهم بأشد تواتر ممكن ...»

مثل المسيح . المرشي الصالح . قد بلغ منتهى حياته : بذلاً حياته لخرافه . ولم يبخل قط بعنائه او جهده . الموت : بل آخر نداء الرب لخادمه الصالح . قد فاجأه . وهو واقف وعلى وشك النزول لتقدمة الذبيحة المقدسة . في الحقيقة كان مستعداً : ومن بضعة اشهر كثيراً ما كان يلمّح الى هذا الانطلاق العظيم المسكن . اياماً قليلة قبل وفاته نبيته راهبة على التعب الشديد البادي على وجهه : فاجابها : «سيان ان يكون اجلي في وقت اقرب قليلاً او ابعد قليلاً : انما المطلوب ان اكون مستعداً .»